حول الاستيلاء على القدس من قبل صلاح الدين

فقط لمعلوماتنا العامة كانت هناك سنوات من العفو، أو من السرور، قد عرفت بذلك من العفو أو من السرور، أي سنوات عفو وسرور، وأمن وسلام، وفرح ومسامحة، ومجد، وبهجة، وبناء عليه ينبغي دعوة سنة ١١٨٧ لتسجيد الرب، من قبلنا سنة عاصفة من العاصفة، عاصفة الوقت، وعاصفة الاضطراب الكبير، فقد كانت سنة خوف، وسنة قتال، وسنة ثقيلة، وسنة موت وسنة حرمان، وسنة تدنيس وأسف، سنة لم يتوقف فيها طوفان الشتاء عن الازدياد من منتصف أيار حتى الاحد الثالث قبل الصوم الكبير، بحرماننا من الاستراحات السنوية، بخنق الفواكه، وبانتاج الأذى والحرمان، والمنتجات غير المفيدة، وبنشر الجفاف والندرة، والفوضى بين الناس والحيوانات، ومع نبتون غالباً— إن لم يكن دوما— ما يأتي الفرج بوفرته، ويزيل ندرة الموسم، لكن البحر أغلق في هذه السنة عن الأرض ينابيع رحمته، وحرم أخته ومنع عنها كل ما تحتاجه من فوائد، وزيادة على هذا، كأن الرب بقدرته نسي منحنا الرحمة، وأضاف إلى آلامنا الصادرة عن دنائتنا الخلقية لذلك الوقت، جدب الأرض، والبحر، والهواء، وبعدما أطلق من الجحيم وفك سلاسل ملائكة العصيان، سمح للذي امتلأ بالفضائل الصادرة عن تجسيده وصلبه، بأن يتعرض للحاجة في أرجاء العالم، وللاستهزاء بالمسيحيين بقلبه الدنس والمليء بالشهوة، وظلم مآب لم يكتمل بعد، فهذا ما قاله الرب، ولقد أجل تدميره حتى وقت اكتمال الشر، ويبدو كأس حماقتنا قد امتلأ وفاض، إلاّ أنه ليس فقط وقع الانتقال لظلمنا، علينا وعلى آلنا، ولكن افترض أن ربنا يسوع، الذي هو قاهر للذنب، قد أذن لانتقام الشيطان بأن يقوم ضد شخصه، لأن الناس قد تحدثوا أنه في سنة التعاسة هذه، جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، فغدت

أسيرة السلطان، الذي هو أمير الكفار، وقد أخليت من سكانها بأعمال تدمير دموية فاقت ما بكاه أرميا في مراثيه، وذلك عندما قال وسط دموعه: «كهنتها ينوحون وفتياتها قد دنسن»، ولم يعد الكهنة في تلك المدينة ينوحون ولا الفتيات يدنسن، لأنه لم يبق هناك أحد منهم ولا منهن، وقد قام تيتوس المنتقم (مع أنه لم يعرفها) للأخطاء المقترفة بحق ربنا، بانزال تعداد سكان (القدس) إلى بعض البقايا فقط، لكن السلطان دمرهم تماماً، واجتث الجذور، وقطع الفروع باخراج جميع المسيحيين من المدينة، فالضريح المقدس، وصليب المسيح، صارا طعاماً للكلاب، المتخمين بالطعام، والملطخين بدماء الشهداء، ولذلك سمحوا لعدد كبير بدفع الفدية، ليس حباً كبيراً بالمال، ولا نقصاً بالكراهية من خلال الوهن بعد احتدام جنونهم، ولم يكن هناك نقص بالرقاب لوضعها منحية تحت يد الضارب، بل لإنعدام السيوف التي تتولى الضرب، فضلاً عن أنها لم تمنحهم الفدية، ذلك أن الذين ابتاعوا خلاصهم، سلموا إلى العساكر للدفع، فأصبحوا مجرد بضاعة ومال، وجميع المراثي، والمصائب، والموت، والدمار، وكل ما توقع الأنبياء من كوارث لهذه المدينة، وقع الآن هذا كله في فاجعتها، ويبدو أن الرب ارتأى احداث ذلك عن عمد وباهتمام، ففي الغالب وكثيراً ما قام الرب في الماضي بانقاذها، ولم ينسها من رحمته في كل مرة حدث فيها هجوم مجنون على أسوارها، لكن الآن عندما لم يبق أبناء للمستقبل، ولابقايا من الماضي، ولم يترك فيها شيء على الاطلاق، من الذي بقي ليتولى تحريرها، وإلى من يمكنها الآن أن تتطلع، وممن تنتظر الآن الرحمة؟ من المؤكد أن الذي كان الراد السمع إلى الأطرش على الفور، والنظر إلى الأعمى، والحياة إلى الميت، قد علمنا أيضاً من خلال عدد كبير من المعجزات، أن لانيأس أبداً.

وبدا الرب، المحب لعبده داود، وكأنه عدو له، بسبب أعمال التعداد

للشعب التي قـام بها الملك، على أسـاس أنه ادعى لنفسـه فخـار ومجد الانتصارات التي هي عـائدة للرب، وعـزا إلى نفسه وإلى أتباعـه النتائج السارة للقتـال، فما كان من الرب إلاّ أن قتل سبعين ألفـاً بسيف الملاك، لكنه لم يفعل ذلك انتقاماً، بل عقوبة، حتى يذل فخاره، ولذلك لم يمنح النصر إلى العـدو، ولم يرفع من شأن أعـداء داود، كما أنه لم يثـر كراهيـة الشعب ضده، ولم يعرضـه للذل، ولزوال الاحترام، ولم ينتزع منه كل ما تركه له، بل أظهر اللطف نحوه، وقاد الملك ووجهه وحفظ الشعب من أجل الازدهار، وجعل الشعـب يزيد من معـرفتـه بـالرب، كأب وليس عـدواً، ولاعصـا، ولاسيفـاً، ولم يكن وقتهـا في تلـك المدينة تدمير للممتلكات، ولاانتـزاع للثروات، ولاتحويل للسلطـة، فقد بقي التـابوه، وبقيت الأشياء المقـدسة نائيـة عن الخوف الذي ناله الذين بقيـوا أحياء، وقـد قام هؤلاء باحصـاء عـدد الموتى، ودفنهم، والنوح عليهم، ثم إنهم ابتهجوا بالسرور الذي كان نتيجة الحزن.

لكن أي نهاية يمكـن أن تكون هناك لهذه التعـاسـة غير المحـدودة. وذلك بسبب الشيـاطين غير المرعـوبـة والتي لاتعـرف الحيـاء، والتي حطمت سلاسها برضا ربنا، وانتشرت من خلال عملائها أو أزالت من الوجود كل مـا كان هناك من محاسن أو مما عاد إلى الرب، وكل مـا كان هناك من انحطاط، ومـن شرور، وكل مـا عـاد إليهم رفعـوا من شأنه، ووضعوه وصانوه في أعلى أماكن الأمان مع ممتلكات دائمة أبداً، ولذلك سوف تنفـذ إرادتهم إلى الأرض مثل نفاذها في الجحيم، وجـرت عقوبة رجـال الأيام الخوالي، لكن ليس وصـولاً إلى الموت، في حين تعـرض رجـال جيلنا للمـوت وليس إلى العقـوبة، فقـد ذهبت أقـدام الكثيرين، وانزلقت خطوات الأكثـر لأنهم لم يكونوا مدركين أن القـدس ليست لا هنا ولا هناك، ونحن الذين نبحث عن القـدس السماوية، ومع الظهـور الأعظم للأذى على الأرض دعونا نغـادر هذا العالم إلى الآخـر، واتركوا

في الوقت نفسه أملنا للمستقبل أفضل، وتحرراً من حب الأرض(★).....

أصل الداوية

قدم فارس اسمه بينز Payns من منطقة في بيرغندي لها الاسم نفسه، حاجاً إلى القدس، وعندما سمع بأن المسيحيين الذين يسقون خيولهم من ماء صهريج ليس بعيداً عن أبواب القدس كانوا يتعرضون دوماً للهجمات المتوالية من المسلمين،وأن عدداً كبيراً من المسيحيين قد قتلوا في كمائن أقامها المسلمون، أشفق على المسيحيين، ونظراً لأنه امتلأ بالغيرة الصحيحة عليهم، سعى إلى حمايتهم بقدر ما استطاع من قوة، وغالباً ما كان يندفع لمساعدتهم من أماكن اختباء أحسن اختيارها، ويقتل كثيراً من الأعداء، ورداً على هذا احترز المسلمون، ووقفوا متأهبين بأعداد كبيرة بحيث لا يمكن لأحد أن يواجه هجماتهم، ولهذا أرغم المسيحيون على هجر الصهريج، لكن بينز الذي لم يكن كسولاً، ولا من السهل إخضاعه، استطاع الحصول بوساطة صلواته، على عون للرب ولنفسه وسعى بقدر ما أوتي من قوة، وبكل وسيلة ممكنة للحصول لنفسه على مكان واسع للاستقرار في داخل حدود الهيكل، وقد أقنع نفسه بالقليل والفتات من الطعام، وتعهد بأداء اليمين أن يقدم أتباعه التكاليف الكاملة للخيول وللسلاح، واستطاع بوساطة التبشير، وبوساطة الصلوات، وبكل الوسائل الممكنة التأثير على جميع الحجاج، الذين عرف أنهم ذوي طاقات جبارة في القتال، وأقنعهم بالبقاء وتكريس أنفسهم بشكل دائم لخدمة الرب أو العيش في ظل تكريس مؤقت، واختار لنفسه ولأتباعه من الفرسان، حتى يحافظوا على

★— وولتر ماب De Nugis curialium — ط. لندن ١٩٢٤ ص ٢٥— ٢٨. ومع أن مادته قليلة الأخبار، لكنها بحد ذاتها وثيقة تصور مشاعر رجال الدين في أيامها، وتقدم لنا نموذجاً للكتابة الفجة ولطرائق التعبير.

أنفسهم وعلى أسلحتهم وعلى واجباتهم، اختار شارة الصليب، ونوعاً من الترسة، له أشكال مميزة، وانصرف نحو الاهتمام بسلوك أصحابه وبطباعهم.

وحدث في الأيام الأولى لبداياتهم، أن فارساً مسيحياً، له مكانة سامية جداً، وكان عظيم التقدير والشهرة بين المسلمين، وكان رجلاً مكروهاً جداً من قبل أقرباء وأصدقاء، الذين قتل عدداً كبيراً منهم، وقد وقع لسوء الطالع في أسر المسلمين، واقتيد إلى الإعدام رمياً، وكان بين النبلاء الحضور هناك عدداً كبيراً من الرماة المتشوقين للحصول من الملك على اعتراف بالمهارة، مقابل كل نشابة أطلقت انتقاماً لدماء أصدقائهم التي سفكها هذا المسيحي، ووقف الملك إلى جانب الضحية، وهو يرغب في كسبه إلى جانبه إذا ما ارتد، ولهذا أطراه بكل كلمة، وحاول جذبه بكل طريق من الطرق، وبلغ به الأمر حداً أنه عندما رأى ذلك الفارس غير مستعد للتخلي عن عقيدته، لم يفقد أمله في كسبه إلى جانبه، ولهذا أمر بفك رباطه، والعناية بشخصه، وبعد جهود طويلة مخفقة ليجعل المسيحي يتخلى عن التزامه الديني، حزن القائد المسلم واكتأب لأن آماله تبددت، وعلى كل حال، لأن الرب — الذي كان الفارس يعاني في سبيله — قد جعل المسلم عطوفاً، وقد أراد هذا المسلم تحريره من التعرض للعذاب الشديد، فأعطى اسم طفل كان أسيراً لدى المسيحيين، وعرض أنه إذا ما أطلق سراح هذا الطفل فإنه سوف يطلق سراحه مقابل ذلك، بشرط أن يجعل مولاه الرب رهينة مقابل عودته، وذهب الفارس في ظل هذه الاتفاقية إلى القدس، وأخبر الملك بالذي فعله، وقدم الملك والكهنة والشعب الشكر العميق للرب لإعادته إليهم هذا الرفيق المتميز، لكن مالبث الفارس أن علم بأن الطفل قد توفي، وبناء عليه استعد للعودة في اليوم المحدد، وقام الملك والمملكة بصوت واحد بمنع ذلك، وحبسوه بموجب أمر ملزم من البطريرك، وتولى الجميع

بوعده بالكثير من القداسات، والصدقات، وتقديم كل ما يمكن أن يحلله من يمينه الذي أداه، ومع أن الرب بدا وكأنه راض بكل هذا، لم يكن الفارس بشكل مؤكد كذلك، وأصر على استعداداته على العودة وفاءً بوعده، لكن رفاقه عندما عرفوا بمقاصده، حكموا عليه بالإجماع على وضعه في سجن أمين ومشرّف حتى يكون يوم العودة قد مضى، حتى عندما يكون الوعد قد خرق، لن يُعدّ مسؤولاً بعد ذلك، ومطلوباً منه الوفاء، ولأنه أمل بالنجاة إما بالحظ، أو بأن يطلق سراحه بتقدير خاص، عانى من هذا الاعتقال حتى رأى اقتراب اليوم، ولجأ هنا إلى وسيلة الكذب، فوعد صادقاً بالبقاء إذا ما قامت الكنيسة بتحليله من خرقه لوعده للمسلم، وهكذا مشى رجلاً محرراً وتقدم وسط بهجة الجميع وتهانيهم، وبدأ في الليلة التالية بالتحديد رحلته، وأسرع بقدر ما استطاع، حتى لا تبقى رهينته المحبوبة(المسيح) بالاعتقال، وبات الفارس في تلك المناسبةسبباً خاصاً لكثير من القلق، لأنه كان في وقت واحد منتظراً من ملكه، ومطلوباً من منتقميه، ومع أن الملك المسلم جعل نفسه مسؤولاً عن ذلك الفرار السري، الذي حمّله كثيراً من العداءات ومواجهة المعتدين المقتدرين، ظل يذكر الرهينة على شفتيه حتى انتهاء النهار وانتهاء أمله، وكان ذلك عندما قدم له التحية، بشكل غير متوقع، الفارس الفار، وهويسير على قدميه، وقد أعياه سفره وسرعته الكبيرة، ولم يكن هذا اللاجيء قادراً على الكلام إلا بصعوبة بالغة، لكن ما أن تمكن من الكلام، حتى التمس العفو، لأنه لم يستطع الوفاء بوعده، وامتلأ الجميع بالدهشة، والعطف، وابتهج الملك بوفاء أسيره، فأطلق سراحه، وأعاده رجلاً حراً من خلال نعمة المسيح(★).

مايختص بابن سلطان القاهرة

ليس قبل هذه الأيام بكثير، ألقي القبض على ناصر الدين بن عباس،

★ De Nugis curialium لوولتر ماب ص٣٣ — ٣٥ .

سلطان القاهرة، من قبل فرسان الداوية، وألقي به في السجن، وكان شاباً لطيفاً، وأكثر من هذا محترماً في مختلف المجالات ومشهوراً: بالأصل وبالنسب، وبالجندية وبالشجاعة، وبالثقافة وبنقاء الذهن، وعندما كان مايزال حراً في بلاده، تعلم كثيراً من الجدل حول ديانتنا، وحول أخطاء شعبه، وبما أنه رأى أن عقائدهم ليس لها أسس ثابتة، أو إيمان، كان سيتبنى المسيحية، لولا أن مركزه السلطوي قد منعه، وعندما جعل هذا معروفاً بشفتيه للذين وضعوه بالأغلال، لم يكتفوا بعدم تصديقه، بل أغلقوا آذانهم عن سماعه لدى مطالبته بالتعميد، ووعدهم ناصر الدين أنه سوف يحصل لهم على القاهرة بقواه الخاصة، وبخططه للعمل، وعليهم الاعتماد عليه بذلك والوثوق بحكم أصله، وذلك شريطة أن يجعلوه يتعمد، ولقد أصروا على عنادهم وتصلبهم في مواقفهم، واهتموا اهتماماً قليلاً بخسارة روحه، وجعلوا آذانهم مصغية لقضية أخرى، وحملت أخبار هذه المسألة إلى المصريين، ولدى إدراكهم لخطورة ما وعد به رفيقهم الشجاع الذي بلغ به الحد إلى الموافقة على تسليمهم، امتلأوا بخوف عظيم، وبأعظم كراهية له كعدو لشريعتهم، وقرروا أنه إذا عرض للبيع— كما جرت العادة— أن يشتروه، دون الاهتمام بمقدار التكاليف، وبعثوا برسل لذلك، وعندما جرى تحديد السعر، قاموا بكل براعة بمقايضة الشاب بأوعية ذهبية وبأواني وكؤوس من الذهب ذات ثمن مرتفع، وخوفاً من شجاعة ذلك الرجل التي لاتقهر، تسلموه— وفقاً للاتفاقية— وهو بالأغلال، وأعلن في وسط المدينة إلى حيث جاء، عن نفسه أنه كان مسيحياً، ولم يخش في وجه شتائم الناس الغاضبين، عن ا لإعلان عن خلاصه، وبناء عليه عندما حمل إلى القاهرة، خرج الناس إلى استقباله بصرخات الفرح، وحرروه من أغلاله، واحتفوا به وشرفوه وكأنه أب لبلادهم، وسيدهم والمدافع عنهم، وعندما وصلوا إلى وسط المدينة، وجهت الدعوة إلى بقية السكان للاجتماع بوساطة صوت المنادي، وهكذا اجتمعت حشود كبيرة، وبروح

جماعية وسرور عارم لم يتوقفوا عن تقديم شكرهم إلى ربهم، وكأنه قام بانقاذهم من أيدي المسيحيين، وكانوا يتوقعون أن يجعلوه قائدهم في الدفاع عن المدينة، لأنهم كانوا بلا قائد، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ولم يتجاوب لا بالإطراء، ولا بالخوف من العقوبة، واستدعى الأب، واعترف أمامه بأنه مسيحي، مما أدهش المدينة كلها دهشة عظيمة، ووقف قادة الناس وأعيانهم— بصرف النظر عن العامة— مندهشين، في صمت عميق، ثم تناقشوا ، مع كثير من الخلاف، حول تبني خطة من خطتين، وكان بينهم من كان راغباً باعدامه والتخلص منه على الفور، ولم يرغب الآخرون بذلك، فصدوراً عن احترامهم لشخصه، رأوا أن المناسب هو اعتقاله وايداعه السجن على أنه مجنون وبسبب جنونه، وجرى استدعاء الأمراء من الجوار، ولدى معرفتهم بالواقعة، اختلفت أيضاً مواقفهم، ورأى أكثريتهم أنه بالتخلص منه ستتوفر الفرصة أمامهم للاختيار للدفاع عن المدينة وللقيادة، وبحكم قولهم ذلك بات من المتوجب صلبه بحكم خرقه لشريعتهم والإرتداد عنها، وفي المقابل كان الذين رغبوا بمصلحة المدينة وبازدهارها وأمنها، أكثر عقلانية، واعتقدوا أن على رفاقه وعلى أهله، أن يسعوا لديه بحكم احترامه للمدينة، وبسبب عنايتها به، واحتراما منه لأصله النبيل، فيضغطوا عليه للاقلاع عن عقيدته المجنونة والتخلي عنها، وأن يتولى عبادة رب آبائه، ولكن الذي حدث أنهم لم يستطيعوا تحقيق الاستجابة لهذا الطلب لابالرجاء ولا بالدموع، ولذلك اقتيد نحو الأمام وربط إلى عمود، ومثله مثل الشهداء الكبار من النبلاء أمثال الملك إدموند وسباستيان المبارك، اتخذ هدفا للنشاب، وبعث به إلى المسيح، وبات هذا الذي «ولد مجدداً من الماء ومن الروح القدس» طاهراً نقياً بما فيه الكفاية، لأن الدم سائل، وكل سائل جاء من الماء.

شيخ الجبل لدى الحشيشية

ومثل هذا حدث أن رجلاً صاحب نفوذ عظيم، صار يدعى شيخ الجبل لدى الحشيشية، لأنه كان الحاكم على الذين استقروا تحت نير سلطانه، وكان أيضاً مصدر ايمان شعبه وعقيدته، وكان قد طلب من بطريرك القدس تزويده بكتب الأناجيل، وقد بعث بها كلية مع مترجم لهم، وجرى استقبال المترجم، وقبول الانجيل بكل تشوق ورغبة، وجرى اختيار واحد من هؤلاء الناس، وكان رجلاً جيداً وعظيماً، وأرسل إلى البطريرك ليجلب معه كهنة ولا ويين يمكن على أيديهم تسلم تعميد كامل، مع قرابين الايمان، وبينما كان هذا الرجل مسافر باتجاه بلده، جرى اعتقاله من قبل كمين نصبه داوية المدينة ومن ثم جرى قتله، ومضت الحكاية تقول بأنهم فعلوا ذلك خشية أن تحول الكفار قد تقود إلى وحدة السلام، لأنه قد قيل بأن الحشيشية كانوا رأس الكفار وغير المؤمنين، واكتشف شيخ الجبل الخيانة، فبقي ملازماً لإيمانه القديم وكان بامكان الملك والبطريرك الحزن والأسى، ولم يكن بوسع أي منهما انزال عقوبة، فالبطريرك لم يكن بإمكانه فعل ذلك، لأن روما كانت أسيرة حافظة النقود، ومن جميع الجوانب، ولم يكن أيضاً بامكان الملك، لأن الاصبع الصغير (للداوية) كان أعظم منه.

وكان قد جرى بالعنف انتخاب رينالد أوف باث Bath ابن جوسلين أسقف سالسبري، لمنصب الأسقفية، لكن رئيس أساقفة كانتربري لم يقبل القيام بترسيمه، وعندما شكا هذا إلى أبيه جوسلين، أجابه:

«أيها الأحمق، امض مسرعاً جداً إلى البابا، ومن دون خوف أو إطراء، وجه إليه ضربة جيدة بمحفظة نقود ثقيلة، وسيقوم هو بالانحناء بالاتجاه الذي ترغب به»، وبناء عليه ذهب، وضربه، وانحنى، وسقط البابا، وارتفع الأسقف، وكتب مباشرة كذباً ضد الرب، في مطلع

رسائله، وذلك في المكان الذي توجب أن يكتب فيه: «بفضل نعمة حافظة النقود» قد كتب بدلاً عن ذلك: « بفضل نعمة الرب»، ثم فعل كل مايرضيه.

وعلى كل حال لندع روما سيدتنا وأمنا، الوعاء المكسور في الماء، ولتكن بعيدة عنا حتى نصدق مانراه، ومثل هذا هناك الكثير من الكذب يقال حول السادة الداوية، دعونا نسألهم ونصدق كل ما نسمعه، والذي يفعلونه في القدس لانعرفه، فهم يسكنون بيننا ببراءة كافية.

ما يتعلق بأصل الاسبتارية

امتلك الاسبتارية قاعدة مكرسة للخير، بالقيام بالتفريج عن المحتاجين بالمساعدة الخيرة، وقد بدأوا بشكل متواضع، وبدا بيتهم المأوى الخاص بالمعونات والاحسان، وعن طواعية استقبلوا الغرباء، واحتذوا حذو حواريي الرب، حيث كانوا متشوقين لاستقبال المسافرين، ولمنحهم المأوى، ولقد عاشوا مدة طويلة مخلصين لتعهداتهم، ولم يلمسوا حافظة نقود المسافر، بل قدموا إليه منحاً كريمة من مخازنهم، ولم يدعوا شيئاً ناقصاً يلبي رغبة المريض، حيث قدموا له كل عناية ممكنة، وبعد شفائه أعادوا إليه أمواله كاملة، وبسبب هذه السمعة قام عدد كبير من الرجال والنساء بتقديم ممتلكاتهم إليهم، وجاء الكثير من الناس إليهم لتقديم خدماتهم في رعاية المرضى والضعفاء، وبناء عليه جاء أحد النبلاء لتقديم الخدمات هناك، مع أنه كان معتاداً على تقديم الخدمات إليه، وأخذ هذا النبيل بغسل قدمي واحد من المرضى كان مصاباً إصابة بالغة بالدمامل، وصار يصاب بالغثيان نتيجة الروائح النتنة، ولذلك قام بدون تردد بشرب الماء نفسه الذي استخدمه في الغسل حتى يرغم معدته على أن تصبح معتادة على الشيء الذي سبب لها الغثيان، واستحوذ هؤلاء على الرب «بهدوء وبصوت منخفض»، لكن نزوعاً إلى الشرنما كثيراً وبقوة بينهم، وذلك بسبب مواريثهم،

وأعني بذلك الطمع والجشع الذي هو أصل المساوىء، وانتبهوا أن «الريح تدمر الصخور إلى قطع صغيرة، وكذلك تفعل الزلازل والنيران»، وفي ظل هذه النار، توجهوا نحو معلمهم، وأعني بذلك البابا، والمجمع المقدس لكنيسة روما، وعادوا وهم غارقين في كثير من المظالم «ضد الرب، وضد تعميده»، وجرى في اللاتيران عقد مجمع تحت قيادة البابا الاسكندر الثالث، وحصل جميع حشد الأساقفة الذي جمعهم هذا البابا، مع رعاة الديرة ورجال الدين بصعوبة لأنفسهم — مع أنهم كانوا شخصياً موجودين— ما كان قليلاً جداً بالنسبة لامتيازاتهم وحقوقهم، وحصل الاسبتارية من جهة ثانية على السلم، ونحن حضور، لكن ما أن إرفض المجمع، حتى قام سيدهم على الفور، وأقصد به كيس المال، بفتح شفتيه المتهدلتين، فاستطاع— ليس عن طريق الحب— بالسيطرة على كل شيء في روما، وغدونا نحن مرة أخرى فرائسهم، وغدت امتيازاتهم وحقوقهم مجدداً، أكثر ثباتاً وقوة، ولقد سيطروا ، ولا أقول إن ذلك كان بكيس نقودهم، بل بوساطة استثماراتهم، ولن أقول بوساطة أشخاصهم، بل بوساطة أهدافهم الدينية، «لأنهم ازدادوا دوما، ونحن تناقصنا»، وحياة المذابح قد أعطيت إلينا أولاً من قبل الرب، ثم منحت بعد ذلك من قبل البطاركة، ونحن لم ننجح في وراثة آبائنا، حيث لم نستطع أن نشغل دور رجل الأعمال والتجارة، لكننا نستطيع أن نستجدي، فقد وضع كل منا الحياء جانباً، والاحترام منعناه، وتنكرنا لجميع أنواع الحياء برضا منا وإرادة، فما هو التعويض الذي نلناه مقابل ذلك ومتى؟ بما أن جميع المذابح تقريباً مشغولة الآن من قبل أعضاء التنظيمات الدينية، لم يبق بالكاد مذبح واحد فيه كفاية لأي واحد من الكهنة، فهؤلاء أعظم عدداً بكثير من المذابح، ومع أن الدير سجن للراهب، وكذلك مع أن إرميا قد قال: «وجهت الفأس نحو جذر حياتي ما لم أجلب أعطيات إلى المذبح»، فلقد غيرت التنظيمات الأوضاع، ولقد حصلنا على وسائل عيشنا بأن أصبحنا

تابعين لهم ندفع الأتاوة من مصادر عيشنا، وصار الدير بيت السجن للراهب فيه سوف يسجن الكاهن لأن الرهبان أرادوا ذلك، فقد استأصلونا بمختلف الخدع، وأبقونا بعيدين عن الكنائس، وعندما يقوم الجند، الذين أوكلت إليهم حقوق الحماية،وهم في حالة عوز حقيقي، ويطلبون العون من مخازن الداوية أو الاسبتارية، فيجيبهم هؤلاء: «نحن نمتلك الوسائل لمساعدتكم، لكن لايمكننا أن نقدم شيئاً من خزينة الداوية أو الاسبتارية إلاّ إلى أخواننا خاصة، ومع هذا إذا ما كنتم راغبين في الدخول في رهبانيتنا، وأن تسهموا بشكل ما بممتلكاتكم إلى بيت الرب، فسوف تعفون وتصبحون أحراراً»، وبناء عليه يقوم هؤلاء الرجال المساكين، المتشوقين للتحرر من قيودهم التي ربطوا بها بشدة، وبما أنهم، كما يعتقدون، ليس هناك ممتلكات سوف يفقدونها دون أذى وألم، باستثناء الهبات المقدمة إلى الكنائس، تراهم يقدمون وهم مسرورين على تسليم هذه الهبات إلى الاسبتارية والداوية، فبذلك يمكنهم الحصول على حريتهم، فبوساطة الخداع، لابل، كما ينبغي أن أقول، بخداع مضاعف ثلاث مرات، نجوا من السيمونية (بيع المناصب الدينية)، وكأن الرب لن يلاحظ بأي وسائل أثرت بيوتهم، فقد هلك أبناء الجنود وأحفادهم، وأكثر من هذا ظلما، هلك عدد كبير من الأشخاص ذوي المكانة، بدون فائدة(★).

أندرونيكوس امبراطور القسطنطينية

عندما كان لويس السمين يحكم في فرنسا، وهنري الأول في انكلترا، كان حاكم القسطنطينية أندرونيكوس، الذي اشتهر بولديه:

أندرونيكوس ومانويل، وبعدما جرى إرسال أندرونيكوس من قبل أبيه في حملة عسكرية، وكان مشغولاً فيها،، توفي الأب، ثم احتل مانويل العرش، بشكل غير شرعي، لأنه كان الأخ الأصغر، وقام بابعاد

★-De nugis curialium لوولتر ماب ص ٣٨— ٤٤.